ايضا يلعب دورا في الاحداث . وهذا النهج في البحث يتيح لها الحصول على انطباعات تخالف تلك التي دونها كتاب غربيون كثيرون كتبوا عن مصر قبلها . انها مثلا لا تستخلص من حالة الفقر المدقع التي يعيش فيها معظم المصريين ، بانهم فريسة الخمول وتبلد الاحساس . بل بالعكس ، فان النشاط الذي تشاهده في شوارع القاهرة وازقتها يذكرها بنيويورك . فالناس هنا لم يستسلموا « للقسمة والنصيب » ، وانما هم في سعي دائم محموم وراء لقمة العيش . وبينما تحدث جون سايكس في كتابه عن مصر * عن جو العنف المستتر الذي يحس به المرء في شوارع القاهرة ، تكتشف فيفيان عن مناخ اللطف والرقة Tenderness الذي يسري في كل مكان بمصر . فهي من البداية تشعر بانها قد تصاب بالارتباك في القاهرة ، ولكن ابدا ليس بالخوف . ولها ايضا ملاحظة طريفة عن التزمير المستمر للسيارات في شوارع القاهرة ، فهي تقول : ان القاهريين يزمرون مثلما يتبادلون التحيات فيما بينهم ، وكأن كل واحد منهم يقول للمارة وسائقي السيارات الاخرين حواليه : مرحبا ازيكم ؟ انا هنا ! وفي المرة الوحيدة التي تسمع فيها نفير سيارة يزأر بهياج وكأنه يشتم الناس حوله ، تخمن فورا بان صاحب الصوت الغاضب ليس مصريا . وفعلا تكتشف بانه اميركي !

الا ان العدسة اللاقطة لهذه المؤلفة المجهزة بحواس دقيقة كالتيفات الرادار ، لا تسجل الايجابيات وحدها . فان احد افراد اسرة علي محمود ينفجر في حملة حاقدة على عبد الناصر : اننا نكرهه .. نكرهه من كل قلوبنا .. كلنا نكرهه . والمتحدث هو رجل كان يمتلك مصنعا انتزع من ملكيته وامم . واخر يقول لها : ان الاشتراكية هي خازوق البشرية وهي الان خازوق مصر . ومع ان المؤلفة لا تدعي الاعجاب بعبد الناصر او بالاشتراكية ، الا انها تنحت بعطف اكبر الى قريب لهذين الرجلين ، يصف لها باسلوب مؤثر المظاهرات الهائلة التي عمت القاهرة اثر استقالة عبد الناصر . ان عطفها ينبعث من احساسها بان هذا المتحدث هو اكثر اخلاصا وصدقا من سابقيه اللذين رسما لها صورة ملونة تعكس حقدهما الشخصي . ان هذا الرجل يحذرها من العائلة التي صادقتهما والذي هو احد افرادها ، فهي لا تمثل روح مصر على حد قوله ، وذلك لحشمها وقلة فائدتها للبلاد وعدم اهتمامها بشيء يتجاوز مصالحها البورجوازية الخاصة . انه يقول لها : **هؤلاء الناس لا يرون ما يجري امام اعينهم ، وهم يكرهون ويخافون الشيء الوحيد الذي بامكانه ان يرفع مصر من القرون الوسطى .**

وتلاحظ المؤلفة افتتان هذه الطبقة بكل ما يتعلق بالغرب ، وخاصة اميركا ، ذلك الافتتان الذي يرافقه نفور شديد من الكتلة الاشتراكية ، اذ دوما تسمع اللوم الموجه الى سياسة اميركا تجاه مصر ، والتحسر على تردي العلاقات بين البلدين . الا انها لا تنجر الى المناقشات السياسية بل تصر على انها لا تفهم في السياسة . وهذا الموقف يرسم بعض علامات التساؤل حول صدق المؤلفة حول هذا الموضوع بالذات . فهي من جهة تبين بكل وضوح شعورها القوي بيهوديتها ، ولا تخفي استياءها عند سماعها لملاحظة جارحة لليهود تصدر من احد معارفها المصريين (واغلبهم لا يعرفون انها يهودية) الا انها لا تسجل موقفها من اسرائيل ، وان كانت قد ذكرت في سياق كتابها بان اهلها صهيونيو الميول . ولعلها تمتنع ذلك الرأي الذي عبر عنه احد اليهود عندما قال ان ارتباطه باسرائيل هو مثل ارتباط الكاثوليك بالفاتيكان . ان المرة الوحيدة التي تتطرق فيها للقضية الفلسطينية هي اثر زيارتها لمخيم للاجئين اثناء زيارة قصيرة تقوم بها لبيروت ، اذ تقول لمرافقها الفلسطيني : لقد سبق ان رأيت ما هو اسوأ من ذلك في الصعيد المصري . (وكتعبير عن نزاهتها في تسجيل جميع معالم الصورة ، فهي تسجل رد مرافقها الذي يقول : ان هذا هو ليس بيت القصيد) .

ما الذي نستخلصه من هذا الكتاب ؟ قد يكون رد فعلنا المبدئي هو مزيج من الجدية والهزل عندما نقول بان افضل مرشح لدراسة شخصية الفرد العربي المتعلم هو كاتبة يهودية ـ اميركية تقوم بقسط كبير من بحثها الميداني في فراش الغرام . فالحقيقة التي لا يمكن نكرانها تشير الى انفتاح الرجل العربي امام المرأة الاجنبية ومصارحته لها باشياء لا يمكن ان يخطر في باله البوح بها لاخيه او لاصدق اصدقائه . وهذه الحقيقة قد اتاحت الفرصة لفيفيان فورنيك ان تكتب كتابا ممتازا عن مصر . فهي فعلا قد رفعت شخصية المصري من المستوى الكاريكاتوري الذي طالما صورته فيه الصحف الغربية ، لتقدمه كرجل من لحم ودم ، ذو ملامح انسانية صادقة . الا ان رحلة الاستكشاف

* Sykes, John: Down into Egypt.